

## علي الديري يطرح سؤال بريطانيا الكبير العام 1923: من هو البحريني؟

المواضيع وسؤال الكتاب، وهو ما يفكك الصورة الغربية التي انعطفت بها تاريخ البحرين الحديث في العام 1923، فكيف انبثق كل ما بُني في العشرينات من هذا السؤال تحديداً؟ وكيف تحول هذا السؤال إلى سؤال السياسة والجغرافيا والحكم؟

«لم يكن مطروحاً على هؤلاء الذين يعيشون على أرض البحرين فعلاً سؤال «من هو البحريني؟»... في تلك الفترة، لم يكن هناك قانون، ولو كان شكلياً... كان هناك نظام سخرة، تمايزات بين من ينتمي إلى قبيلة وبين من لا ينتمي إلى قبيلة، تمايزات بين من ينتمي إلى جنسية أجنبية وبين المحلي».

مستغلةً لتمثل السلطات البريطانية من طريقة إدارة حاكم البلاد، ومحاولاتها السيطرة على الأوضاع والحفاظ على مصالحها، بعد حوادث العام 1904، «خاضت القوى الاجتماعية صراعات ليكون هناك قانون، ولتنشأ عدالة، ولكي يتم الاعتراف بأبناء الوطن بشراً متساوين».

لم يكن هناك حراك واحد تتخّضت عنه نتيجة واحدة.

كانت أحداث مركبة جداً امتدت لأكثر من 30 عاماً وتقاطعت فيها العديد من الظروف. خلال ذلك الوقت، تحرك البريطانيون على أكثر من صعيد، بل وأصدر

التاج البريطاني بنفسه مرسوماً مفصلاً خاصاً بالبحرين: مرسوم البحرين الملكي 1913.

حاول البريطانيون عمل الكثير لتنظيم الفوضى في البلاد وضمان الاستمرار من الاستفادة من موقعا ومواردها، بما فيها القوى العاملة فيها، لكنهم اصطدموا بعناد وتصوّف لا يُحتمل من عيسى بن علي. «عارض الحاكم مشروع إنشاء البلدية، وتأسيس المحاكم المدنية، ورفض العرائض الشعبية ومشاريع الإصلاح السياسي. وجدها خلعا لعظمة شخصه، وتنصيباً لعظمة شخصية اعتبارية (مجلس، مؤسسة، شعب، دولة)». انتهى الأمر بعزل الحاكم عيسى بن علي، وانتهت مهمة تعريف البحريني إلى صيغ قانونية ومجالس بلدية ومجالس عرفية وإدارات بيروقراطية، شكّلت أول أساسات الدولة الحديثة، وكان ذلك بخطة واضحة قرأ تفاصيلها المقيم السياسي البريطاني بنفسه في خطاب العزل.

هكذا، يقول الكتاب، وُلد تعريف البحريني، ماراً بتأسيس بلديات ومجالس وإدارات، وسنّ قوانين، وتغييرات في هرم السلطة من رأسها إلى عقبها، فضلاً عن إعادة تأسيس النظام القضائي وسلطات الأمن، وما وازى ذلك من إصلاح للنظام الاقتصادي، على رأسه مسح الأراضي، والسيطرة على السوق والميناء، والجمارك، وتنظيم بيت الحكم السياسي.

### الوثائق البريطانية: مصدر الرواية

يتزامن صدور كتاب «من هو البحريني؟» مع صدور المجلدات الست الأولى من الترجمة العربية لسجل البحرين في أرشيف الوثائق البريطانية التي كانت مصدر الكتاب وروايته، بحكم اطلاع المؤلف عليها قبل صدورها. «لقد جرى تغيير هذا الأرشيف من التاريخ الوطني، وما زالت هذه الوثائق محظورة، وهي عرضة للاجتراء والتوظيف، المغلوط والتزوير، وما كان لهذه الدراسة أن تكون لولا أن توافر لها لأول مرة ترجمة كاملة لهذه الوثائق عبر مشروع مركز أوال للدراسات والتوثيق».

لقد جعل الأرشيف، بوثائقه التي أمكن الاطلاع عليها مترجمة للمرة الأولى، من رواية الكتاب فتحاً جديداً في أغوار تاريخ هذه البلاد. هنا، ستُسرّد معلومات للمرة الأولى، وستكتمل صورة أحداث وقصص تاريخية معينة كانت حلقاتها مفقودة، وسنسمع رواية التاريخ مقروءة على لسان أصيب به.

(اسم الكتاب: من هو البحريني؟ بناء الدولة وصراع الجماعات السياسية 1904-1929/ الناشر: مركز أوال للدراسات والتوثيق، لبنان، الطبعة الأولى، 2017/ عدد الصفحات: 372 صفحة)

\* باحث وكاتب بحريني

### صالح شهاب \*

رغم كون علي الديري أحد من نالهم انتقام إسقاط الجنسية من السلطات الحاكمة، فإنّه لم يدر فرضية كتابه الجديد «من هو البحريني» حول الهويات والأصول، ولا السكان الأصليين، رغم سهولة تقديم طرح كهذا، ورغم وجود بيئة خصبة لتلقيه وليثير فيها جدلاً لم يهدأ يوماً.

يقوم كتاب «من هو البحريني؟» على فهم الأساس التاريخي الذي ولد منه «البحريني» المعترف به من «الدولة» والقوى الكبرى في العالم، ومعرفة سياقاته امتداداته ومآلاته. سيكون مخاض هذه الولادة، وتجاوزها لعقدة «الاعتراف»، والتوافق التاريخي عليها بين الجماعات السياسية برعاية السلطة البريطانية، المدخل التلقائي لقراءة تاريخ تأسيس الدولة في البحرين: الدولة التي شكّلت في وجهها الحديث بعد عزل البريطانيين حاكم البحرين عيسى بن علي في العام 1923، الإطار الجامع الذي أمكن أن يولد هذا البحريني تحت قبته.

### سؤال الهوية والوجود

من أنت؟ وماذا لك في هذا البلد؟ وما صفة وجودك فيها؟ ومن يحكمه؟ وإلى أي عدالة يجب أن تخضع؟ حتى العام 1923، وفي ظل ما سمّاه المقيم السياسي البريطاني «نظام اللا حكم»، لم يكن لهذه الأسئلة أي إجابات، فطرحت بريطانيا سؤالها الأساسي الكبير: من هو البحريني؟ قد يكون سؤال مثل هذا غريباً جداً على أي أمة، حتى لو كانت تحت نير الاستعمار الذي ربما لم يكن يحاول إلا تنظيم أموره ومصالحه فيها، لكنه، في البحرين، كان واقعاً وحقيقة اعترف بها الكل.

جماعات كثيرة ومنقسمة، هويات متعدّدة، طبقات من الشيوخ والأتباع والمسّخرين، والأهم حكم غير منظم لا يعترف إلا بأتباع الشيخ، وبار تحت الرماد. جعلت هذه الفوضى سؤال «من هو البحريني؟» شائناً ومعقداً ومركباً على سلطة استعمارية مثل بريطانيا. لماذا شكّلت مهمة تعريف البحريني أول أساسات الدولة الحديثة وأسئلتها؟ وكيف كان شكل الدولة ومستقبلها بحسب ما رسمه البريطانيون؟ إلى أين انتهى هذا التعريف حينئذ؟ وماذا تمخّض عنه من تحوّل تاريخي كبير؟ ولماذا تلمي علينا اللحظة التي نعيشها اليوم، وهي لحظة يوشك فيها مفهوم البحريني أن يفقد معناه الوجودي والتاريخي، أن نعرف كل ذلك؟

لماذا كانت تلك الدولة قبل مائة عام أكثر حداثةً وتقديماً من شكل الدولة اليوم؟ ولماذا بات يسهل اليوم كسر المواطنة البحرينية؟، أين تلك الدولة التي أسّس لها البريطانيون بالقوة والهيمنة؟ وأين ذهبت وعودها والخط التاريخي المرسوم لها في وثائقهم كنموذج للخليج؟ كيف نظر البريطانيون لأطروحة المملكة الدستورية منذ نهاية العشرينات؟ وكيف تم القضاء على هذه الأحلام حين كانت «رغبة الملك أكبر من رغبة الملكة؟» كما يقول الكاتب.

### قراءة في التاريخ البحريني

تقوم فرضية الكتاب على أن مشكلة البحرين التاريخية التي بلغت حد عدم «الاعتراف» بالبحريني، هي أن الدولة لم «تستقل» بشخصيتها عن شخص الحاكم، وظل هذا الحاكم يقاوم استقلال الدولة، ورفض جميع محاولات إصلاح الدولة من

1904 حتى تمّ عزله في 1923، وأراد أن يكون شخصه الطرف المهيمن في كل شيء». يقمّ الديري قراءة روائية لأحداث الربع الأول من القرن العشرين، ويعيد سردها بشكل متمم، معتمداً في الأساس على روايات تاريخية تخرج إلى النور للمرة الأولى عن أرشيف الوثائق البريطانية. كان البريطانيون يسجلون كل شيء، بما فيه حركة عصا الشيخ وفداويته.

فضلاً عن الأرشيف، يعضد الكتاب روايته المتناسكة بكتابين مؤرخين عاصرا تلك المرحلة، وكان لأحدهما دور فيها، وهما: ناصر الخيري، صاحب كتاب «قلاند النحرين في تاريخ البحرين»، ومحمد علي التاجر صاحب كتاب «عقد اللال في تاريخ أوال».

إنّ الخوض في مواضيع الكتاب لن يكف عن إذهال القارئ الذي سيظل يتساءل عن العلاقة بين كل هذه

العربات.

(7) لا يتطلب أي صيانة ولا عناية خاصة، بعكس العربة المعرضة للكسر والصيانة والأخشاب والنقل.

(8) وأخيراً يستطيع رجل واحد قيادة 6 جمال محملة بالبضائع ودون مشاكل، ولكنك بحاجة في حالة الثيران والعربات إلى رجل لكل ثورين Bulliet: 1975، p23-24).

### المنافسة التدمرية الساحلية

سنأخذ حالة للقوانين التدمرية، التي تعطينا صورة عن طبيعة الصراع التجاري والاجتماعي بين أهل الإبل والعربات. تميل القوانين التدمرية بوضوح إلى مصلحة أهل البادية والإبل مقابل العربية، فأهل تدمر ونخبتهما على ما يبدو، كانوا على منافسة شديدة مع أهل الحواضر الشامية القريبة والساحلية.

يرى بولييت وآخرون أن التدمريين سنوا قوانين تحمّل من مشاركة أهل الساحل (وهؤلاء كانوا تجاراً بعربات تجرها الثيران) في التجارة المنجّهة شرقاً وجنوباً عبر البادية. لا استبعد شخصياً وجود مثل هذه المنافسة والغفور بين أهل الساحل وتدمر، ولكن في تصوري إن عملية الجمل ورخصه هو ما شجع وحسم المنافسة بين أهل الساحل والريف والبادية لمصلحة الأخيرين وإبلهم.

لنعد إلى قانون مرور القوافل بتدمر عام 137 م، الذي فيه أن على كل حمولة عربية ضريبة مساوية لحمولة 4 جمال. ولنفهم ذلك بنحو أفضل، علينا العودة إلى قانون روماني سنّ عام 301 ميلادي لمعالجة اضطراب الأسعار والمعاشات في الأقاليم الشرقية للإمبراطورية. وجاء فيه أن هناك رسماً ضريبياً بقيمة 20 ديناراً رومانياً، لكل عربة يجرها ثوران بحمولة 1200 رطل روماني تمرّ بتدمر، ذلك مقابل 8 دانير رومانية لكل جمل بحمولة 600 رطل يمرّ بالمدينة ذاتها Bulliet: 1975، p20).

أي إنّه في كلتا الحالتين، كانت الضريبة أقل وفق القانون الروماني بـ 20%، وقراءة الضعف في حالة القانون التدمري لمصلحة أصحاب الإبل منها لأصحاب العربات. وبذلك يكون أهل البادية ذوي أفضلية واضحة على أهل الساحل وسائر المدن الشامية الأخرى.

هنا يقدر بولييت أن العربات اختفت في الفترة الممتدة من القرن الرابع ميلادي والسابع ميلادي في مناطق مختلفة في المشرق وشمال أفريقيا، أي قبل الفتح الإسلامي بقرون (نفس المصدر، ص 27)، ما قضى على العربات وهشمش دورها في النقل والتجارة والحرب. مع ذلك يؤكد بولييت أن القوانين «الجائرة» والمتحيزة للإبل مقابل العربات قد ساهمت في الحد من العربات، إلا أن ما حسم المنافسة هو فعالية الجمال وقلة تكاليفها التي مزّ ذكراها.

### خلاصة

يمكن القول، إن كان الإسلام ثورة العرب الكبرى، فالإبل كانت ثورتهم الأولى التي بفضلها علا نجم العرب لأول مرة بين الأمم. ونادراً ما احتكر قوم تربية حيوان وبفضله بزوا غيرهم من شعوب كما حصل مع العرب. ومن حسن حظنا أن بعضنا لم يتنكر تماماً للموروث، فبقي ذكر قوافل الإبل في الشعر المغنى حياً إلى اليوم. وجليكم يعرف قصيدة الشاعر العباسي ماضي الموسوس (ت 859م) التي أداها الفنانان ناظم الغزالي وصباح فخري:

مأ أناخوا، قبيل الصبح، عيسهم

وحلّوها وسارت بالهوى الإبل

يا حادي العيس عرج كي أوذعها

يا حادي العيس في ترحالك الأجل

ومع تقدم الزمن ولد تراث غنائي جديد في العراق، حيث حل وحش جديد في مخيلة الشعراء محل الإبل، سيحمل المعشوق إلى المجهول، ألا وهو القطار. الذي ذكره الشاعر مظفر النواب في قصيدته الخالدة (الريل وحمد) التي غناها الفنان ياس خضر والتي تسجل انتقال الوعي الشعبي من عصر الإبل إلى عصر القطارات:

مرينا بيكم حمد واحنا بقطار الليل

وسمعنا دق قهوة، وشمينا ريحة هيل

\* باحث عراقي

أهل المدن، وطرحوا قيماً أخلاقية ونظماً جديدة للإنتاج.

ففكرة أنهم قوم فلاح يملكون أقدارهم ولا يملكهم شيء، ستلهم الكثير من الحركات الثورية في منطقتنا، وسيشارك هؤلاء البدو في ثورات وحركات العصيان الجذرية التي حدثت في الإسلام، من القرامطة إلى المشعشين. ومن هنا كانت شهادة الملك الآشوري المبكرة حول هؤلاء القوم الذين لا يخضعون لحاكم ولا ضريبة، اعترافاً مؤلماً بتحدّي أمني واقتصادي سيؤرق كل الملوك والسلاطين بعده. سنعود إلى هذه النقطة في مقال آخر.

الجمال وقدرتها الكبيرة على عبور كل الصحاري مكنت أهل الجزيرة العربية من تواصل بعضهم مع بعض، ما سببهم لاحقاً «بتعريبها»، حيث لم يكن كل أهلها عرباً كما يعتقد.

وفي نفس الوقت مثل ظهور العرب وجمالهم للحضارات «الشرقية» فرصة لإعادة إنتاج نفسها سياسياً. فالعرب في النهاية هم أبناء المشرق القديم بشهادة الرقم الطينية الآشورية. وورث هؤلاء مثل غيرهم الكثير من تراث المنطقة القديم. وبفضل جمالهم وتنظيمهم العشائري الصراوي نجحوا كما لاحظ ابن خلدون، باقتحام مدننا وإنشاء أخرى جديدة وبإسقاط السلالات الفاسدة والضعيفة والحلول محلها، مؤسسين إمارات ودول قوية وغنية. وهذا بالضبط ما حصل في الحضرة، وتدمر، والرما وحمص والبتراء والحيرة وبصرى والجابية والموصل وحلب الحمدانيتين وغيرها الكثير.

### اقتصادية الجمال

يفتح بولييت كتابه المتع الجمال والعجلة بتذكيرنا بتصور شائع، لكنه مغلوّط، هو أن العجلة هي واحدة من أذكى الاختراعات البشرية، أما الجمل فهو واحد من أكثر مخلوقات الرب خرقاً. وصار الحكم على تقدم المجتمع والحضارة بعدد العربات أو استعمالها بدل الدواب وحدها. وصار بعضنا يمارس مازوشية لا طائل منها للنيل من حضارتنا على أنها حضارة أعراب وإبل وخيم، غير مدرك معنى ما يقول.

يناقش بولييت بتأن كيف اختفت العربات مقابل الجمال في العالم القديم، ويعزو ذلك ببساطة إلى قوة الجمل وعمليته كوسيلة نقل وحرب وتفوقه على العربات وعلى كل دواب النقل الأخرى. ولدينا على الأقل أربع تقارير عسكرية لوجستية، عن أفضلية

”

### العربات اختفت في الفترة الممتدة من القرن الرابع ميلادي والسابع ميلادي

“

الجمال على الثيران والبغال والخيل والعربات في النقل من ثلاثة جيوش حديثة هي البريطانية والفرنسية في أفريقيا القرن 19 والجيش الأميركي في الولايات الجنوبية. وكلها تؤكد النقاط التي أوجزها الميجور البريطاني ليونارد باختصار:

(1) السرعة في الحركة بغض النظر عن الظروف البيئية القاسية.

(2) قوته في الحمل والجر ضعف قوة الثيران والبغال.

(3) قدرته على قطع ما بين 20-25 ميلاً، وهي أكبر من قدرة الدواب الأخرى (الثور مثلاً 9 أميال).

(4) قوته التي تمكنه من القيام بأربعة أضعاف الرحلات والأعمال التي تقوم بها غيره من الدواب ضمن حياته الطويلة نسبياً.

(5) صبره على العطش والجوع.

(6) لا تعصى عليه الأنهار ولا الجداول ولا الهضاب ولا الطرق الضيقة بعكس